مدنية مصر في سورية

موقع سورية بين وادي النيل ووادي الفرات فكانت مطمح ابصار الغزاة والفاتحين من قديم الزمان ولا بد لكل دولة قويت شوكتها في احد هذين الواديين من نشر سلطانها على انحائها اتقاء لغارات خصيتها هذا اذا لم تفعل ذلك تشوقاً الى ضخامة الملك وتوصلاً الى فتح ما وراءها من البلاد . وكان الفراعنة ولاسيما بعد اخراج الهكسوس او الرعاة من مصر اذا آنسوا من انفسهم قوة او من الامم السورية ضعفاً اكتسحوا سورية واخضعوها لسلطتهم

ولم تقف سلطة مصر عند حدود سورية بل تعدتها الى ما بين النهرين واسيا الصغرى وبعض الجزر كما يستدل من الآثار المصرية التي وجدت فيها . وقد اطلعنا على خطبة للسر هوغارث الانكليزي في ما كان لمصر من السلطة في انحاء الشرق الادنى فرأينا ان نقتطف منها الحقائق التاريخية التالية . وقد قضى السر هوغارث مدة يتولى البحث والتنقيب عن الآثار القديمة في بعض انحاء سورية واليك ملخص كلامه

كان الفراعنة يستخرجون المعادن من شبه جزيرة سيناء فيضطرون احياناً الى مقاتلة قبائل العرب . وفي ما عدا ذلك بقوا حتى عهد الرعاة لا يتعرضون لسورية ولا للبلدان الاخرى شرقيهم . وفي هرب سانهات[1] الى حبرون واقامته فيها دليل واضح على استقلال سورية الجنوبية في عهد الدولة الثانية عشرة من الدول المصرية . ثم حل الرعاة في مصر واستووا على عرشها حتى اذا أُخرجوا منها اخذ الفراعنة من بعدهم يغزون سورية ويحاولون امتلاكها كأن تعرفهم بالرعاة الذين اتوهم منها جرأهم على ذلك

ولم تكن حملاتهم عليها في اول الامر سوى غزوات كغزوات البدو في يومنا هذا فلم يقصدوا لفتح المدن الحصينة كغزة وعسقلان ومجدو بل كانوا يقاتلون الشاسو (الرعاة) في التيه والروثنو في ما يعرف الآن ببلاد الخليل ويضربون الجزية على المدن الفينيقية حتى جزيرة إرواد في الشمال وعلى القبائل في داخلية البلاد حتى نواحي حلب . ولعل اكثر المدن والقبائل التي كانت تؤدي لهم الجزية كانت تفعل ذلك ترضية لهم ودفعاً لشرهم اي انها لم تخضع لهم فعلاً

ولم يثبت للمصريين قدم في انحاء سورية الاَّ في عهد تحوتمس الثالث اي قبل المسيح

(١) اسم من بيت الملك هرب من وجه فرعون

نحو ١٤٧٠ سنة في السنة الثلاثين لملكه كان قد استولى على غزة ومجدو وغيرهما من العواصم في جهات فلسطين وولّى عليها ولاة لم يعرف حتى الآن هل كانوا مصريين ام غير مصريين ولا عُرف ايضاً كم بقي من الجنود في تلك الانحاء . وفي المكتشفات التي عُثر عليها في تل العمارنة رسائل من ولاة سورية الى فرعون يشكون فيها من تقليل الخامیات واخلاء بعض المعاقل ومن هذه الرسائل يترجح ان اولئك الولاة كانوا سوريين يوليهم ملك مصر ليحكموا باسمه ويبقي عندهم حاميات من جنده ويقيم معهم معتمدين من قبله . وكان الحد الشمالي للبلاد التي خضعت لهذا لذلك العهد خط يبدأ من بحر الروم شمالي جزيرة ارواد ويمتد شرقاً بجنوب الى ان ينتهي في الصحراء جنوبي دمشق

ومدّ تحوتمس سلطتهُ في اواخر ايامه الى بلاد نهرينا وهي انحاء حلب والى وادي الساجور فكانت جنودهُ تغزو تلك الانحاء وتضرب عليها الجزية . اما الامم المجاورة وهم المتانيّ الذين ناوأوا الاشوريين حيناً في شمالي ما بين النهرين والحثيون شمالي جبال طورس والكاسيون في بابل فكانوا لا يجسرون على التعرض لها تهيباً من ملك مصر . ولم تجاوز سلطتهُ الى الانحاء التي فيها اليوم عينتاب ومرعش بل استرضاهُ امراؤها بالهدايا

ولم يكن في الشرق لذلك العهد دولة قوية تنازع مصر السلطان فان الاشوريين كانوا قد قلّوا قوة دولة بابل ولم تبلغ دولتهم اشدها من العزة والمنعة . ولم يكن الآراميون قد استجمعوا شيئاً من اسباب الدولة والقوة . وكان المتانيون في شمالي ما بين النهرين والكاسيون في بابل ضعافاً لا يجرأون على ذلك فتوطدت السلطة المصرية في سورية . وفي ايام امنحتاب الثالث لم يحدث فيها غارات ولا حروب وكان امنحتاب يأتي بامرائها وهم احداث الى مصر ليتربوا فيها تربية مصرية ولكن ذلك لم يجدِ في تمصير سورية . ولم يمضِ زمن طويل بعد امنحتاب حتى اخذت سلطة مصر تتقلص اذ اشتد ساعد الدولة الاشورية ووطد الآراميون اركان دولتهم في نواحي دمشق ولوبت شوكة الحثيين فاخذوا يسطون على البلاد التي الى الجنوب منهم . ولما تبوّأ حورمحاب عرش الملك كانت سورية كلها قد خلعت نير مصر . وبعد ذلك جعل الفراعنة يغزونها فلا تلبث ان تخلع نيرهم وبقيت الحال على مثل ذلك مدة طويلة الى ان استولى عليها البطالسة الاول ولا يعنينا الآن ما كان من شأنهم فيها لانهم كانوا يونان نشروا فيها المدنية اليونانية . وسلطة مصر على سورية التي كان لها علاقة في فعل مدنيتي البلادين الواحدة بالاخرى حدثت في زمن الدولة الثامنة عشرة . فلننظر في ما كان لفتحها سورية واستيلائها عليها من التأثير في مصر وسورية والشرق الادنى عموماً

اعظم انقلاب في المدنية المصرية حدث في ايام تحوتمس الثالث فأُتقنت بعض المصنوعات وأُهمل بعضها وأُتي بمصنوعات جديدة من الخارج اكثرها سوري وبعضها مما كان يصنع في اسيا الصغرى . ويظهر في الآثار الباقية من هذا العصر اسماء غير مصرية وآراء وافكار لم تنشأ في مصر . وكثر الترف وأُبدل الجنود الوطنيون بجنود مأجورين من المسترزقة وذلك ما كانت تفعلهُ كل امة اذا زادت ثروتها في وقت قصير . ولا شك في ان هذا الانقلاب كان نتيجة فتوح تحوتمس في سورية اذ رأى المصريون فيها مظاهر مدنيتها وعادوا منها بتحف وغنائم كثيرة وجعل امراؤها وولاتها يقدمون الهدايا الى الفراعنة من نفائس بلادهم وانفتح لمصر باب التجارة مع اسيا الصغرى والبلدان الشرقية عمومًا

ولم يكن لمدنية مصر مثل ذلك من التأثير في مدنية الامم السورية في ذلك العهد . وقد وجدت في فلسطين آثار مصرية كثيرة لكن معظمها متأخر عن ذلك العصر يرجع عهدهُ الى ما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد . ونقلُ هذه الآثار كثيرًا في اقسام سورية الوسطى والشمالية ولا يرى منها شيء يرجع عهدهُ الى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد . وعندي ان السبب في انتشار المدنية السورية في مصر وعدم انتشار المدنية المصرية في سورية مع ان مصر كانت الغالبة ومدنيتها ارقى من مدنية سورية هو اقبال السوريين على هبوط وادي النيل والسكنى فيهِ وقعود المصريين عن السكنى في البلاد الخاضعة لهم

وقلما مال المصريون الى مغادرة بلادهم وركوب الاخطار والاتجار في البلدان البعيدة فلم تكن لهم يد في نشر مدنيتهم خارجًا عن بلادهم . والامم التي اخذت شيئًا من مدنيتهم تناولتهُ من وادي النيل مباشرة كأن يجيء بعض ابنائها الى مصر ويعود بقبس من نور مدنيتها

والعصور التي انتشرت فيها المدنية المصرية خارج مصر اربعة العصر المينوي المتأخر اي في القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد والعصر الاشوري المتأخر من القرن العاشر حتى القرن السابع قبل الميلاد والعصران البطليموسي والروماني ومدتهما معًا من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن السادس بعدهُ . وفي عصرين من هذه العصور كانت مصر خاضعة للاجانب وفي واحد منها كان بيت الملك فيها اجنبيًّا من احدى الامم القريبة منها . ومن الغريب انهُ وجد في كريت وقبرس آثار مصرية من عهد الدولة الثامنة عشرة اكثر مما وجد في سورية مع ان هاتين الجزيرتين لم تكونا خاضعتين لمصر . وهذا دليل ناصع على ما اقول بهِ وهو ان شيوع المدنية المصرية في بلاد لم يكن يترتب على خضوع تلك البلاد لمصر

وقد عثر اهل البحث على ادوات مصرية كثيرة مع ادوات يونانية في بلاد اليونان وجزائرها فغيَّر البعض اعتقادهم في المصريين وصاروا يقولون انهم كانوا يهاجرون من بلادهم واوردوا دليلاً على صحة ذلك رسائل قديمة وحكايات عن بعض رحلات المصريين ولكني لا ارى في هذا الدليل ما يوجب تغيير الاعتقاد القديم فالرسائل لا تثبت وجود المصريين خارج بلادهم وحكايات الرحلات تظهر انهم لم يكونوا يسوحون الاَّ قليلاً . اما الادوات التي وُجدت في الجزر وفي بلاد اليونان فكان اليونانيون انفسهم يجلبونها من مصر اذ كانوا يأتونها للاتجار مع الفراعنة الذين استوطنوا جهاتها الشمالية

ولم تتمكن مصر من توطيد سلطانها على الاماكن التي فتحتها في سورية ولا استطاعت دولة من الدول التي فتحت مصر ان تثبت قدمها فيها الاَّ اذا كانت لها السيادة في البحر . فلم تثبت قدم مصر في بلاد اخضعتها قبل عهد البطالسة الذين كانت اساطيلهم تسود البحر المتوسط حتى جزر بحر ايجه شمالاً وحتى الادرياتيك غرباً . فلما قويت رودس افلتت اسيا الصغرى من يدهم ولما تفوقت عليهم الاساطيل الرومانية خسروا سورية . ولم تتمكن امة من توطيد حكمها في مصر قبل الرومان ولم يتم لهم ذلك الاَّ بعد التغلب على قرصان كريت وكيليكية . وانتقل الحكم في مصر من الرومانيين الى البيزنطيين ولم يخرج هؤلاء منها الاَّ بعد ان ضعفت قوتهم البحرية

لما فتح الاشوريون مصر لم يطل مكثهم فيها اذ لم يكن لهم اسطول في البحر ولم يستعينوا بالفينيقيين مع انهم فتحوا بلادهم فاستعان المصريون بامراء الاشوريين فاتوهم بالجنود المرتزقة من الاناضول وحاربوا الاشوريين واخرجوهم من بلادهم . لكن الفرس الذين فتحوها بعدهم استعانوا بالفينيقيين فدام حكمهم فيها نحو نصف قرن . ولما قويت شوكة اليونان في البحر واخذوا ينازعون فينيقية السيادة عليه تمكن المصريون من الاتيان بالجنود المأجورين من الاناضول ثانية وطردوا الفرس . وحاول الفرس بعد ذلك استرجاعها فلم يفلحوا في اول الامر ولكن لما قام فيلبس المكدوني شغل اليونان عن مساعدة المصريين فعاد الفرس اليها وبقوا فيها الى ان فتحها ابنهُ الاسكندر بعد نحو عشرين سنة

وقد كان من المحال على الفراعنة ان يبقوا مسيطرين على سورية بعد ظهور دولة قوية فيها كدولة الحثيين . ويستفاد من بعض الادلة ان تحوتمس الثالث استعان باهل دور والفينيقيين بحراً في فتح سورية ولكن المدن التي ساعدتهُ اخضعها الحثيون او الآراميون في ايام اخناتون . واسترجع الفراعنة الاولون من الدولة الثامنة عشرة هذه المدن ولكن

الحثيين لم يلبثوا ان غلبوهم عليها ثانية ومن الادلة على ذلك ان ارواد اتاتهم على رعمسيس في واقعة قدس . ورجوع رعمسيس بعد هذه الواقعة والمعاهدة التي ابرمها مع الحثيين في السنة العشرين لملكه يفيدان انهُ اخلى سورية كلها ما عدا جنوب فلسطين . ولما ملك رعمسيس الثالث لحقت فلسطين كلها بباقي اقسام سورية ولم يتوطد لمصر سلطان فيها بعد ذلك رغماً عن كثرة غزوات الفراعنة لها وتعرضهم لشؤونها السياسية

كشافة الاولاد

تمهيد

جرى البحث امامنا مرةً في كتب التعليم الحديثة ولاسيما كتب تعليم الصرف والنحو وما فيها من البسط والتسهيل على الطلبة في جنب الكتب القديمة كشرح ابن عقيل على الفية ابن مالك فكان رأي الشيوخ من الحضور انَّ هذا البسط وهذا التسهيل قد يختصر بهما الوقت ولكن لا تشحذ بهما الاذهان ولا تقوى الملكات لان الاذهان تشحذ بمحاولة حل المشاكل والملكات تقوى بالمران والممارسة وان ارباب الاقلام من اهل هذا الجيل الذين درسوا الكتب الحديثة السهلة المأخذ ليسوا اكتب من الذين درسوا الكتب القديمة القليلة البسط ولعلَّ هذا هو الصواب . ونحن اذا متنا ثم بعثنا لا نختار للتعلُّم غير الطريق الذي سرنا فيهِ على وعورتهِ . فقد كنا نبتاع المطبوع من الكتب القديمة ونسخ غير المطبوع ولا نستعين بغير الدرس وامعان النظر والتمرُّن على البحث والانشاء وتحدي ارباب الاقلام . والانسان يتعلَّم بالعمل واهمُّ اصلاح تحتاج اليهِ المدارس ويحتاج اليهِ التعليم بنوع عام ان يربِّي الاولاد على العمل ولا داعي لترغيبهم فيهِ لانهم يميلون اليهِ بالطبع ولا يعسر فون عنهُ الاَّ قسراً . ويظهر لنا ان اسلوب كشافة الاولاد هو من هذا القبيل

المراد بكشافة الاولاد

يراد بالكشَّافة الجنود الذين يرسلون امام الطلائع ليرتادوا البلاد ويكتشفوا مواقع الاعداء . وبكشَّافة الاولاد نظاماً جديداً شاع في اوربا واميركا حتى وصل هذا القطر وهو جمع الاولاد في جمعية تبث في نفوسهم الهمَّة والنشاط وطلب المعالي والترفع عن الدنايا والسفاسف وذلك بتدريبهم على الانتباه والملاحظة واكتشاف المجهولات من المعلومات